التناص القرآني في الشعر المنسوب للإمام جعفر الصادق عليه السلام

الأستاذ المساعد الدكتور
عاطي عبيات
جمهورية إيران الإسلامية
قسم اللغة العربية وآدابها ـ جامعة فرهنگيان
A.Abyat@cfu. ac.ir

الملخص:

يهدف هذا البحث عبر المنهج الوصفي-التحليلي الوقوف على ظاهرة التناص القرآني ودلالاتها في مجموعة الأشعار المنسوبة للإمام جعفر الصادق عليه السلام والمتناثرة في الكتب التالية (وسائل الشيعة - الكافي - بحار الأنوار - زهر الآداب - ديوان أهل البيت عليهم السلام - ديوان الإمام جعفر الصادق عليه السلام - العقد الفريد- آمالي الصدوق - التحفة المهدوية، من شعر المعصومين - مناقب آل أبي طالب وغيرها) بوصفها تقنية فنية تأخذ بناصية الشعر إلى آفاق دينية أكثر رحابة بهدف تفجير طاقات النص وإضفاء عليه جانب من القداسة الدينية لتوليد دلالات جديدة.

فالدراسة ستتجه إلى استبطان نصوص الشعرية المنسوبة للإمام عليه السلام واستنطاقها من خلال كشف علاقات تقاطعها مع النصوص السابقة، لها وربط تلك العلاقات بالنص الكلي، وعلاقته بالمتناص معه، وهو المحور الذي تدور حوله الدراسة بشكل رئيس، معتمدين بذلك على التناص نفسه بوصفه عملية انتاجية. لأنّ القرآن الكريم منذ نزوله إلى الأن شكّل المصدر الديني الوحيد الذي يرتاده الأدباء والشعراء على امتصاص الثراء الدلالي لهذا الكتاب المعجز عبر آليات قوامها التلميح والترميز ولغتها الإيجاز والتكثيف المشعة بالإيحاء والظلال وراحوا يستثمرون معانيه ومفاهيمه وقيمه وإيحاءاته في ابداعتهم.

فقد عكف الإمام جعفر الصادق عليه السلام في النص الشعري المنسوب له على توظيف الثراء الدلالي لهذا الكتاب العظيم في نصه الأدبي فكانت هذه المعطيات بالمحصلة لها الأثر المشهود في تطوير وتخصيب تجربة الإمام الفنية. في إنتاج الدلالة الشعرية.

الكلمات الدليلية: القرآن الكريم، الإمام الصادق عليه السلام، التناص، أشكال التناص، التجربة الفنية.

المقدمة:

يشكل القرآن الكريم منبعاً ثراً، وعطاء مستمراً، وملاذًا خصبًا، يلجأ إليه الشعراء والأدباء في أعمالهم الأدبية المختلفة؛ لأنه يشكل جزءًا ثابتًا من حياتهم المعيشة، ويحمل نواة بقائهم ووجودهم واندماجهم بالحياة. وقد وجد الشعراء -منذ زمن بعيد- في القرآن الكريم ضالتهم التي ينشدونها للتعبير عما يجيش في خواطرهم من رؤى فلجؤوا إليه مستلهمين معانية وأحداثه المختلفة محاولين ربط الأحداث المعاصرة به مما يعطي أشعارهم أبعادًا عميقة في القوة والتأثير، لا سيما أنهم وجدوا شبهًا واضحًا بين أحداث اليوم وأحداث الزمن الغابر.فلقد كان للغة القران الكريم أثر في لغة شعراء صدر الأسلام هذا الأثر انعكس عل الألفاظ ودلالات تلك اللغة إذ بدأ الشاعر يستعمل مفرداتها ودلالاتها في رسم صورهِ الشعرية والتعبير عنها(اللغة في شعر ابي اسحاق الالبيري(٢٣٥)والحق ان الحركة الشعرية لا تستطيعُ ان تقطع اشواط الصلة بجذور التراث الأدبي، فهو يمثل الاصالة التي تُعطي للقصيدة هويتها ولذلك يمكن ان نقول أن اللغة الشعرية تتخلص من الغريب والمهجور والمعقد إذا ازدادت ثقافة الأُمة(شاكر غضيب ١٩٨٩: ١٣٦- ١٣٩)فاللغة الشعرية تحمل طاقات انفعالية جمالية تمد جسوراً بين المتلقي والشاعرُ، عندها ينبغي للشاعر أن يوصل تجاربه الخاصة بمنتهى القوة النافذة (ابركرمبي، لاسل ١٩٥٤: ٣٤).فظل القرآن الكريم مصدراً يستلهم منه الأدباء معانيهم مستغلين طاقاتهم الإبداعية في الوصل بين تجاربهم ونصوصه؛ وهم بذلك يثبتون أن التراث الديني مستمر ودائم وقابل للتشكيل وإعادة الصياغة.(قاسم، ١٩٩٤، ١٥) لذلك شكلّ القرآن وأحداثه، حضوراً فاعلاً في الشعر العربي طيلة العصور، لذلك عَمَدَ الشعراء على توظيف النص القرآني وإستثماره والعمل على امتصاص لغته وأساليبه ومضامينه، فتكثيف استدعاء النص القرآني عبر(التناص)جاء وفقاً لما ((تتميز بِهِ اللغة القرآنية من إشعاع وتجدد، ولما فيها من طاقات إبداعية، تصل بين الشاعر والمتلقي، بحيث تستطيع التأثير في المتلقي بشكل مباشر. يضاف إلى ذلك قابليتها المستمره لإعادة التشكيل والصياغة)) من جديد، بحيث يستطيع عدّة شعراء أن يستثمروا الآية

الواحدة، من خلال إسقاط مغزاها، أو شكلها، على أزماتهم الخاصة، لتعبر عن تجاربهم الفردية من دون أن يلتزموا صيغة واحدة)) (حلبي،٢٠٠٧،١٠٠) ولإثراء تجاربهم وتطوير أدواتهم التعبيرية عمدوا على تفجير الطاقات الكامنة في النص القرآني ووظفوا آياته ((بآليات متخالفة مرةً ومتآلفة مرات، وهذا يدلّ على أنّهم لم يتعاملوا معه بصورة آلية أو ميكانيكية أُحادية الدلالة، بل تعاملوا معه بوعي فكري ونفسي ووجداني، تتعدد فيها الدلالة وتتحول الآية أو "الشخصية القرآنية" إلى عالم يزخر بدلالات ومنظورات متعددة ومتكّثرة، دون انفصال عن نسيج القصيدة، وتوهج التجربة الشعرية)) (نمرموسى،٢٠٠٥، ٢٥) واعتبر النص القرآني مصدراً غنياً للتناص وللإلهام الشعري على مستوى الدلالة والرؤية و"ذلك أنَّ استحضار الخطاب الديني في الخطاب الشعري المعاصر، يعني إعطاء مصداقية وتميُّز لدلالات النصوص الشعرية، انطلاقاً من مصداقية الخطاب القرآني، وقداسته وإعجازه". (جربوع،٢٠٠٢م: ١٣٤) فالقرآن الكريم بالفاظه، ومعانيه، وتراكيبه وصوره كان حاضراً في شعر الإمام الصادق عليه السلام، وكان أثره واضحاً جلياً فأغني الإمام بهذا النبع الثري صوره الأدبية التي حفلت بها قصائده، ولعل استحضار تلك الصور كان أدق وأخفي على المتتبع، إذ يستدعي معرفة عميقة بما ضمه هذا الكتاب الكريم بين دفتيه من أسرار البيان وكنوزه. وهذا البحث ينطوي على محورين أساسيين: فالمحور الأول تركز على أهمية التناص أو الإقتباس القرآني في النص الأدبي والمحور الثاني تركز على أنواع التناص في شعر الإمام الصادق عليه السلام ومدي تأثيره على تجربة الإمام الفنية وبيان مدي تأثيره في نقل التجربة الشعرية والشعورية للمتلقي.

الدراسات السابقة:

فالدراسة التي نحن بصددها على حد ظنيّ والله أعلم، لم يفرد أحد من الباحثين بحثاً مستقلاً تناول شعر الإمام الصادق عليه السلام بل كل ما وجدناه هي أبحاث تركزت حول شخصيته العلمية ومكانته المرموقة ودوره التاريخي في إحياء الرسالة السماوية و السنة النبوية الشريفة ومجابهة الالحاد والأفكار الضالة وغيرها من نشاطات.

١ـ حياة الإمام الصادق عليه السلام وسيرته العلمية والأدبية.

هو الإمام السادس من أئمة أهل البيت عليهم السلام وهو جعفر بن الامام محمد بن الامام علي بن الامام الحسين بن الامام على بن ابي طالب عليه السلام وامه هي السيدة الفاضلة الزكية أم فروة

وهي من افضل نساء عصرها وهي عالمة تقية ذات شرف وفضل وقد ولد عليه السلام في سنة ٨٣ للهجرة ونشأ في رعاية والده وجده الامام على بن الحسين زين العابدين وورث علمهما وفقههما وأخلاقهما العظيمة وحكمتها المنيرة وتسلّم الامامة في سنة ١١٤ للهجرة بعد وفاة والده واستمرت مدة إمامته الى سنة ١٣٢ للهجرة.

وامتاز عصر الامام الصادق عليه السلام بفترة من الزمن انشغلت فيها الدولة العباسية الفتية حينها بتتبع بقايا الدولة الاموية ومحاربتها وحيث انشغل حينئذ الحكام العباسيون الأمويون عن تتبع الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فاستثمر الامام عليه السلام تلك الفرصة لنشر مختلف العلوم فبدأ بتدريس طلبته الذين كانوا يقدّرون بالآلاف وعلمهم مختلف العلوم كالعلوم الفقهية والقرآنية وحكمة الوجود والطب والكيمياء والمناظرات وبرز لديه الكثير من الطلبة ومنهم يحيى بن سعيد، وزرارة بن أعين وجميل بن دراج، ومحمد بن مسلم، واسحاق بن عمار، وأبو بصير، وعبد الله الحلبي، وأبان بن تغلب، والفضيل بن يسار، وسفيان الثوريّ، وأبو حنيفة، ومالك بن أنس، ومحمد بن الحسن الشيباني، وسفيان بن عيينه وكذلك المفضّل بن عمر والذي وله الكتاب المشهور (توحيد المفضّل) وهشام بن الحكم الذي كان هو البارز في المناظرات والعالم الكبير جابر بن حيان الكوفيّ الذي برز بعلم الكيمياء وكذلك ابو حنيفة النعمان، وبهذا اراد الامام عليه السلام ان ينشر نور العلم في العالم الاسلامي والعالم الانساني ليبني بذلك عقل الانسان بناءً رصينا ويوصل الإنسانية الى الكمال الّائق بها وحيث الإنسان نواة المجتمع الإنساني، وقد تصدى الإمام عليه السلام لظاهرة التيارات الفكرية المنحرفة ولاسيما تلك التي تضرب بإنحرافها عمقا دينيا سواء أكان عقائديا كالجبر والتوفيض حيث صرح الإمام عليه السلام فيما روي عنه بأنه (لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين) وكذلك افكار الإلحاد والزندقة وكذلك الإعتزال الذي تطرّف اليه الخوارج أم كان فقهيا كالقياس بالرأي وأبطل بذلك آراء جميع المنظرين لهذه التيارات الفكرية الخاطئة، وبهذا يمكن القول ان الامام عليه السلام اسس جامعة علمية متكاملة يمكن تسميتها بجامعة أهل البيت عليهم السلام والتي توفر جميع العلوم التي يحتاجها الانسان وتضمن إثبات بطلان افكار وأراء المنظرين للتيارات الفكرية المخالفة لها بدلالة العقل الإنساني قبل الأدلة النصية، واستطاع الامام عليه السلام ان يوفر البناء العلمي والاجتماعي والاخلاقي وتعزيز بناء الايمان وعلاقة الأخوة والمحبة والود بين المؤمنين وتفعيل لغة العلم الأخلاق الحسنة في الخطاب الإنساني فكانت

كلمات الامام عليه السلام وأحاديثه أعظم من الجبال الصم الرواسي. وبعد ما استقر سلطان الدولة العباسية بدأ الحاكم المنصور الدوانيقي بالتضييق على الامام عليه السلام وتوجيه الاستدعاء اليه بين فترة وأخرى ورصد كل تحركاته حتى ضيق عليه ولم يرقب كونه من أولياء الله ولا منزلته العلمية في العالم الاسلامي ولم يشفق على نحوله بسبب عبادته ولا بياض شيبته الكريمة، وحينها نعى الامام عليه السلام نفسه وشكى ما يعانيه من الآلام والمحن والضيق، حتى قال: (عزّت السلامة، حتى لقد خفي مطلبها، فإن تكن في شيء فيوشك أن تكون في الخمول، فإن طلبت في الخمول فلم توجد فيوشك أن تكون في الصمت، والسعيد مَن وجد في نفسه خلوة يشتغل بها) (الكافي ٨ ٢١٥ ورجال الكشي ٣٦٥ وبحار الأنوار ٤٧ ٨٥) ولكن المنصور اصر على اختياله فحاول صديقه المقرب وصاحب سره محمد بن عبد الله الاسكندري منعه عن ذلك وصرف فكره عنه قائلا له: إنّه رجل أنحلته العبادة، واشتغل بالله عن طلب الملك والخلافة ولكن لم يرتض المنصور مقالته فردّ عليه: يا محمد قد علمتُ أنّك تقول به، وبإمامته ولكنّ الملك عقيم! ((مهج الدعوات ٢٤٧.) فشدد الحاكم المنصور الدوانيقي الخناق حتى عزم على اختياله وقتله تحت تأثير دافع الملك والسلطان فدس اليه السم الفاتك على يد عامله وحينما سقى عامل المنصور الامام عليه السلام بالسم شعر الامام بآلام قاسية وأحس بتقطع أمعائه حتى استشهد على إثر ذلك في الخامس والعشرين من شهر شوال رحل الى جوار ربه شهيدا مظلوما صابرا محتسبا وعم الحزن والأسى بين الناس حتى دفن في البقيع الغرقد بجوار والده الامام محمد الباقر وجده الامام زين العابدين عليهما السلام وسادت أجواء الأحزان والآهات ورثاه أحد أصحابه وهو أبو هريرة العجلي بقوله: (مقتضب الأثر في النصّ على الأئمة الاثني عشر، للجوهري: ٥٢).

أقول وقد راحوا به يحملونه ... على كاهل من حامليه وعاتق

أتدرون ماذا تحملون إلى الثرى ... ثبيراً ثوى من رأس علياء شاهق

غداة حثى الحاثون فوق ضريحه ... تراباً، وأول كان فوق المفارق

٢ـ الإمام الصادق عليه السلام جامعة أهل البيت عليهم السلام.

لقد تمتع الإسلام والمسلمون في زمانه بالمعارف الإلهية والحكم النبوية والأسرار العلوية والحقائق الدينية، من الأصول والفروع في مكتبه ومدرسته بعد ما كان محظوراً في عصر

الأمويين الغاصبين الظالمين.

فقصده الطالبون من مختلف البلاد والأقاليم حتى اجتمع في محضره أربعة آلاف طالب علم، فألقى عليهم سلام الله عليه من غوامض الحكم وحقائق العلوم، وأظهر ما أخفى آباؤه وأجداده خوفا من فراعنة بني أمية. ففي أواخر الدولة الأموية وضعفهم، وأوائل الخلافة العباسية وغفلتهم أشرف الحق على حريته قليلا، وحصلت فترة صغيرة للظلم والجور والضغط على أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومهبط الوحي. فاغتنم الإمام هذه الفرصة الثمينة فتصدى لإحقاق الحق وإبطال الباطل، فشرع بترويج حقائق الشريعة وإظهار أسرارها، وبيان رموزها ونشر أحكامها، حتى أشرقت شمس الهداية على البلاد، وسطع نور العلم على العباد من الحاضر والباد، وكل أخذ على قدر ذوقه واستعداده واشتياقه من الحكمة والفقه والأخلاق، ومن أنواع العلوم الغريبة كالجفر والكيمياء وغيرها. وإن كان في أواخر عمره عليه السلام حسده المنصور وشدد عليه الضغط ولم يترك له مجالا للتدريس والتعليم ولكنه سلام الله عليه قد استوفى حظه في تلك الفترة، وسدل أشعة معارفه على مشارق الأرض ومغاربها وأرسل عنوان التشيع إلى شعوب الأمة وقبائلها، ومن هنا سميت الشيعة الإثنا عشرية بالجعفرية، وأصبح رئيسا للمذهب صلوات الله عليه وعلى آبائه الطيبين وأبنائه الطاهرين وأصحابه المكملين وشيعته المقهورين أجمعين ما دامت السماوات والأرضين.

ولو انصرف اهتمام الإمام الصادق عليه السلام إلى بناء العمائر أو المدارس العظيمة المشيدة، لكان من الميسور هدمها بفعل الأحداث أو المناوئين، ولاندثرت آثارها في يومنا الحاضر. ولكنه آثر أن يرسي أساس ثقافة دينية لا تزعزعها الأعاصير، فطاولت الزمن ولم يقو المناوئون على القضاء عليها. وحرص الإمام على توطيد أركان الدعائم الأربع التي سبق ذكرها، بحيث أن القرن الثاني الهجري لم يكد ينقضي حتى انتشر العلم والأدب في ربوع العالم الإسلامي، وانطلقا به إلى عصر النهضة.

فلولا مدرسة الإمام جعفر الصادق عليه السلام ولولا تشجيعه الشخصي لجميع جوانب العلم والأدب، لما ازدهرت العلوم في العالم الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة، وأن الذين ينسبون إلى الخلفاء العباسيين فضلاً في الازدهار الذي عرفته العلوم في العالم الإسلامي آنذاك، يخطئون في تقديرهم وحكمهم، لأن الخلفاء العباسيين الأوائل كان همهم

الشاغل توطيد أركان حكمهم والقضاء على الأمويين وخصومهم، أما الخلفاء الذين أتوا من بعدهم، فلم يعرف عنهم إلا الانغماس في الملذات والفسق والشراب ومجالس اللهو واللعب، مما استفاضت أخباره في كتب السير والتاريخ، ولئن نسب إلى المأمون والمتوكل اهتمامهما بالعلم، فأن هذا لم يشغل من وقتهما إلا جانباً صغيراً، وإن قلة قليلة من مجموع الخلفاء العباسيين السبعة والثلاثين الذين تداولوا الحكم في معظم العالم الإسلامي طوال خمسمائة عام هي التي عزفت عن الملذات وانصرفت إلى العلم والأدب. وقد اضطلعت هذه القلة القليلة بدور كبير في تطوير العلوم والحضارة الإسلامية، بفضل ما توافر لها من الإمكانيات المادية الضخمة التي مكنتها من تقديم الهبات والعطايا السخية إلى العلماء والشعراء والأدباء، واجتذابهم من أقطار الأرض وتشجيعهم على التأليف والاستنساخ، فضلاً عن قيامهم بتأسيس دار الحكمة في بغداد.

٣ـ المكانة العلمية للإمام جعفر الصادق.

تميز عصر الإمام الصادق بأنه عصر النمو والتفاعل العلمي والحضاري بين الثقافة والتفكير الإسلامي من جهة، وبين ثقافات الشعوب ومعارف الأمم وعقائدها من جهة أخرى. ففي عصره نمت الترجمة، ونقلت كثير من العلوم والمعارف والفلسفات من لغات أجنبية إلى اللغة العربية، وبدأ المسلمون يستقبلون هذه العلوم والمعارف وينقحّونها أو يضيفون إليها، ويعمقون أصولها، ويوسعون دائرتها. فنشأت في المجتمع الإسلامي حركة علمية وفكرية نشطة.وسط هذه الأجواء والتيارات والمذاهب والنشاط العلمي والثقافي، عاش الإمام الصادق ومارس مهماته ومسؤولياته العلمية والعقائدية كإمام وأستاذ، وعالم فذّ لا يدانيه أحد من العلماء، ولا ينافسه أستاذ أو صاحب معرفة، فقد كان قمة شامخة ومجدا فريدا فجّر ينابيع المعرفة، وأفاض العلوم والمعارف على علماء عصره وأساتذة زمانه فكانت أساسا وقاعدة علمية وعقائدية متينة ثبت عليها البناء الإسلامي، واتسعت من حولها آفاقه ومداراته. وقد اشتهر الإمام الصادق بغزارة العلوم ولا سيما في الطب والكيمياء وخلف آثارا عجيبة من ذلك (طب الصادق) و(أماليه). هذا بالإضافة إلى علم الكلام والفقه والحديث وقد روى جابر بن حيان الكيمياوي العربي الشهير الشيء الكثير من الآراء الكيمياوية في مؤلفاته عن الإمام جعفر الصادق. وفي (حليه الأولياء) لأبي نعيم بعد ما جاء بأسماء أعلام الإسلام روايتهم عنه قال، وأخرج عنه مسلم في صحيحه محتجا

بحديثه، وكان مالك بن أنس إذا حدث عنه قال "حدثني الثقة بعينه" و"ما رأت عين، ولا سمعت أذن، ولا خطر على قلب بشر، أفضل من جعفر الصادق، فضلاً وعلماً وعبادةً وورعاً" (https://forums.alkafeel.net/showthread.php?t=44390)

والذي يتابع منهج الإمام، ومهمته العملية يكتشف إن الإمام كان يستهدف بعمله ومدرسته الأهداف الآتية:

أولاً: حماية العقيدة من التيارات العقائدية والفلسفية والإلحادية والمقولات التي لا تنسجم وعقيدة التوحيد التي نشأت كتيار كونته الفرق الكلامية والمدارس الفلسفية الشاذة، لذا انصبت جهود الإمام عليه السلام على الحفاظ على أصالة عقيدة التوحيد ونقاء مفهومها، وإيضاح جزئياتها وتفسير مضامينها وتصحيح الأفكار والمعتقدات في ضوئها ولذا فقد درب تلامذته أمثال هشام بن الحكم على الكلام والجدل والمناظرة والفلسفة ليقوموا بالدفاع عن عقيدة التوحيد وحمايتها من المعتقدات الضالة، كما الجبر والتفويض والتجسيم والغلو وأمثالها من الآراء والمعتقدات الشاذة عن عقيدة التوحيد.

ثانياً: نشر الإسلام أما الهدف الثاني لمدرسة الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وجهوده فهو نشر الإسلام وتوسيع دائرة الفقه والتشريع، وتثبيت معالمها وحفظ أصالتها، إذ لم يُرو عن احدٍ من الحديث ولم يُؤخذ عن إمام من الفقه والأحكام ما أُخذا عنه، أساساً وقاعدة لاستنباط الأحكام لدى العلماء والفقهاء والسائرين على نهجه والملتزمين بمدرسته والمنتسبين إلى مذهبه الذي سُمي باسمه (المذهب الجعفري).

٤ـ الشعر المنسوب للإمام الصادق عليه السلام.

الشعر مرآة النفس، ينعكس ما فيها وما انطوت عليه من خير أو شر، وما تخفيه الجوانح من فضيلة أو رذيلة وللباحثين اعتماد كبير على الشعر في تحليلهم للشخصيات، فعلى ضوئه يحكمون لهم أو عليهم. كانت حياة الأئمة عليهم السلام حلقات متواصلة من الجهاد المتواصل في إصلاح المسلمين وإرشادهم، حافلة بتوجيههم إلى الطريق الصحيح، وموعظتهم إلى سبل الخير والرشاد. وكانوا عليهم السلام يسلكون كافة السبل لتوعية الناس، فمرة بالخطب، وأخرى

بالوصايا، أو الحكم أو إلقاء الدروس. والشعر كما قالوا: ديوان العرب وأنيس النفوس وفاكهة المجالس، يستريح الإنسان الذواقة باستماعه، ويأنس صاحب الحواس المدربة والثقافة الأدبية بانسياقه. وجرياً مع الناس في هذا الاتجاه جاء شعر الأئمة عليهم السلام جاء متمشياً مع اتجاههم في الدعوة إلى الخير، والحث على الفضيلة والأمر بمكارم الأخلاق. ومن هنا كان تعريف النقاد للشعر فقالوا: (الشعر هو الحق ينقله الشعور حياً إلى القلب).

والمشهور عن الإمام الصادق عليه السلام أنه فتق أبواباً كثيرة في العلوم، وأسس معظم قواعدها كعلم الفقه وعلم الأصول..، وأنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب، ولم تنص المصادر المترجمة للإمام عليه السلام أنه كان ينظم الشعر. غير أن بعض المؤرخين نسبوا له بعض الأبيات منها وكذلك الشعر المنسوب اليهم عليهم السلام وإلي الصادق عليه السلام فإنه يدور في فلك: الأخلاق، الكمال، الوعظ، الارشاد، التذكير بالموت، الحكمة، إلى غير ذلك من الأخلاق والآداب. وسواء أصح أن الإمام عليه السلام كان ينظم الشعر أم لم يصح، فإن من المقطوع به، إنه كان في طليعة البلغاء، لأنه نشأ في بيت الفصاحة والبلاغة.

إن قراءة شاملة لسيرة المعصومين تفصح عن أن الشعر الذي يشتمل على مضامين أخلاقية شريفة، ومفاهيم حكمية راقية، لا يكون موقع مذمّتهم وكراهيتهم، بل نجدهم يمجّدون هذا النوع من الشعر، ويأمرون أتباع المذهب ومحبيه بتعلّمه وإنشاده. بل وجدناهم يستشهدون ببعض الشعر بلحاظ ما ورد فيه من حكم ومواعظ، وقد دوّنت لنا بعض المجامع الحديثية والروائية العديد من تلك الأشعار التي تلاها المعصومون أنفسهم، وألقوها على مسامع الناس، الخاصة منهم والعامة. نعم، لا بُدَّ من الإشارة إلى أنّ هذه الكتب والمصادر الحديثية التي نقلت إلينا أشعاراً نسبت إلى المعصومين^ لم تراع الدقة الكافية في هكذا موضوع، بل اكتفت بنقل كل ما نسب إليهم، سواء كان لهذه النسبة واقعية أو مجرّد اشتباه وادّعاء، وإنما هي في الحقيقة لشعراء آخرين، كما أنها كثيراً ما نسبت بعض الأبيات لأكثر من إمام، ليتبين في آخر التحقيق والبحث في الدواوين الشعرية أنها ليست لواحد منهم، وإنما هي لأحد الشعراء. ورغم استعمال الناقلين لعبارة ((فتمثَّل))، التي تعبِّر في الجملة عن أن الشعر الذي نقله المعصوم ليس من تأليفه، وإنما هو ينقله للاستشهاد به، إلاّ أنّهم استعملوا كثيراً كلاً من عبارتي: ((أنشد))، و((قال))، وهما غير صريحتين في دلالتهما؛ فقد تعني أن

الشعر من تأليف الإمام عليه السلام؛ كما تحتمل الدلالة على أنه إنّما استعاره من كلام الشعراء؛ للاستشهاد به والتمثيل به.

كذلك تمّ تأليف بعض الكتب على شاكلة الدواوين الشعرية، ونسبت إلى أحد الأئمة، حيث تم استخراج كلّ الأشعار المتعلقة بأحد الأئمة، والتي نسبت إليه، من كتب الحديث ومجامع الحديثية وكتب السير. ونظراً إلى كون هذه الكتب لم تعتمد على مصادر صحيحة، وإنما اكتفت بالرجوع إلى كتب الأحاديث والروايات، والتي يلاحظ عليها الإفراط في التسامح في نقل الأشعار، ونسبتها إلى المعصوم، فإن هذه الدواوين كذلك لم تسلم من آفة التسامح. فرغم اعتراف مؤلّفيها بأن هذه الأشعار ليست بالجملة من تأليف المعصوم، إلاّ أنّها لم تتورّع عن نقل العديد من الأشعار، ونسبتها إلى المعصوم، بدون أدنى دليل علمي معتبر.

إن الأبيات الشعرية التي اعتمادناها نحقّق في هذا المقال هي بأجمعها منسوبة إلى الإمام الصادق عليه السلام أعم من أن تكون من إنشاده المبارك أو لشعراء آخرين. وبشكلٍ دقيق فإن هذا المقال سيبحث في إنشاءات وإنشادات الإمام الصادق عليه السلام.

٥ـ التناص في اللغة والإصطلاح.

التناص مصطلح نقدي حديث وافد من الغرب، فرض حضوره في مجمل الدراسات الغربية والعربية منها مؤخرا. وهو حديث الوفادة على المشرق العربي، ولقد اختلفت النظريات والمفاهيم والتفسيرات حوله باختلاف التيارات الفكرية والمدارس النقدية أساسا في الغرب. والتناص لفظ يعود إلى جذره اللغوي (نصص)، وقد أورد أصحاب المعاجم اللغوية مجموعة من المعاني تفسر هذا الجذر، فقد جاء في لسان العرب أن النص: "رفعك الشيء. نص الحديث ينصه نصا: رفعه وكل ما أظهر فعد نصّ. وقال عمرو بن دينار: ما رأيت رجلا أنصل لحديث من الزهوي: أي أرفع له وأسند... ونص المتاع نصا: جعل بعضه على بعض...والنص: التحريك حتى تستخرج من الناقة أقصى سيرها،... والنص: الإسناد إلى الرئيس الأكبر والنص التوقيف والنص التعيين على شيء ما"(لسان العرب، مادة ن ص ص) فالجذر نصص يتولد عنه عدة دوال ومعان متقاربة، تنتمي جميعها إلى حقل دلالي واحد، "وربما كان أكثرها اتصالا بالمنطقة النقدية، هو دلالتها على عملية (التوثيق) ونسبة الحديث إلى صاحبه وذلك عن طريق متابعة ما عند صاحب الحديث لاستخراج كل

عناصره حتى بلوغ منتهاها"(عبدالمطلب،١٩٩٥، ص١٣٧) أما التراكم الذي يكون (بجعل الشيء بعضه فوق بعض) فلا يقوم إلا على التمايز والتفاعل والتشارك، وفي إطار هذا المفهوم نستطيع أن نجد علاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للتناص، إذا علمنا أن مادة التناص بصورتها اللفظية تحتوي على المفاعلة؛ والمفاعلة لا يمكن تحققها الفعلي إلا إذا توفر التمايز والتعدد على نحو من الأنحاء.(عبدالمطلب،١٣٧).

التناص اصطلاحاً:

يعتبر التناص (intersexuality) من أبرز تقنيات الشعر الحداثي وقد ظهر كمصطلح نقدي جديد في الآونة الأخيرة وارتبط هذا المصطلح بالمدارس النقدية الأجنبية، رغم أنّ ظاهرة التناص لها جذور عميقة في التراث النقدي والبلاغي العربي القديم، حيث (إنّ التضمين والإقتباس والمعارضة والمناقضة تقترب إلى حد كبير من مصطلح التناص، مع الإقرار بأنّ التناص بصورته النقدية الآنية أكثر تطوراً وتعقيداً من هذه المصطلحات النقدية العربية القديمة، إذ إنّه يحمل طابع العصر ويدل على معانٍ وأنواع أكثر تعدداً وتنوعًا وتعقيدًا)) (عبدالرزاق سليمان، ٢٠١١، ١٤) ولقد برز هذا المصطلح على يد "جوليا كريستيفا"، غيرأن الولادة الحقيقية له كانت على أيدي الشكلانيين الروس أمثال شكلوفسكي وميخائيل باختين، حيث كثير من النقاد يعتقدون ((إنّ الأخير هو أول من صاغ نظرية في تداخل النصوص. على حين أن جوليا كرستيفا قد إستحدثت هذا المصطلح(التناص)،عند تقديمها لكتاب "باختين" عن ديستوفسكي))(حلبي،٢٠٠٧، ١٤) فالتناص عند "جوليا" يقصد به((أنّ كل نص هو عبارة عن فسيفساء من الإقتباسات، وكل نص هو تشرب وتحويل لنصوص أخرى)) (محمد عزام، ٢٠٠١، ٣٠، نقلاً عن عبدالرزاق سليمان،١٥) بمعني آخر أن كل نص يظهر للوجود من خلال إعادة أنتاجه من نصوصه مختلفة.

فالتناص بمعني تداخل النصوص وتفاعلها من الظواهر التي تتسم بها النصوص الأدبية المنتجة بعامة، فالنص لابدّ له بصورة أو أخرى من أن يتفاعل مع غيره من النصوص الأخرى؛ لإنتاج نص أدبي جديد، يستقي أشياء كثيرة من تجربة الشاعر الذاتية، تنضاف إليها التناصات المقتبسة عمداً أو عفواً(حمدان، ٢٠٠٦، ٨٤) فالتناص كما يقال ليس عملية شكلية تتأسس على التواصل الشكلي بين النصوص وإنما يعني التناص الفاعل تمازجا

وتشابكا وتلاحما بين النصوص التي تقيض للقارئ فرصة معاينة النصوص معاينة قائمة على إثارة وعيه وإدراكه واستنفار معرفته وخبرته في النص الوافد وما طرأ عليه من تحولات في تغيير دلالاته عندما يدخل في نسيج النص الجديد ويصبح جزءا لا يتجزأ منه، فالنص المستقبل ممكن أن يحور ويبدل ويغير في النص الوافد وذلك وفق ما تقتضيه رؤية المبدع. فالتناص يقوم بمزج وتركيب وإذابة النص في تركيب جديد مما يعطيه بُعداً دلالياً آخر، للنص الغائب في تركيبته الجديدة وتنشأ علاقة وطيدة وحميمية ما بين النصين تبدأ بالإشارة وتنتهي عند إحاطة القارئ بمناخ دلالية تدفع به نحو قراءة تأويلية تقوه على التفكيك وإعادة البناء(خليل، ٢٠٠٦، ١٦٥) فالتناص ((يكسب النص جانباً مهماً من قيمته ومعناه، مما يمكننا من إستجلاء المعاني التي يطرحها، ويعمق فهمنا لها، كما يمكننا من طرح عدّة توقعات حين نواجه النص، فيشبع فينا هذه التوقعات، ويزوّدنا بالمسلّمات التي تعيننا على فهم النص الذي نتعامل معه، والتي أرسلتها نصوص سابقة، ويتعامل معها كل نص جديد بطريقته الخاصة، فينميها ويرسخها، ويضيف إليها، فالتناص بؤرة مزدوجة يلفت من خلالها الإنتباه إلى النصوص الغائبة فتتخلي عن إستقلاليتها، ويدعو إلى إعتبار هذه النصوص الغائبة مكونات لشيفرة خاصة تساعد على فهم النص الذي نتعامل معه، وتفضّ مغاليقه)) (صبري،١٩٩٦، ٤٩)

٦ـ أهمية استدعاء التناص في النص الأدبي.

ترجع أهمية توظيف تقنية التناص لما تشكلّه هذه الظاهرة من أبعاد فنية وإجراءات أسلوبية تكشف التفاعل وأشكاله المختلفة بين النصوص، إذ يقوم استدعاء النصوص بأشكالها المتعددة الدينية والشعرية والتاريخية على أساس وظيفي يجسد التفاعل الخلاّق بين الماضي والحاضر. فالتناص عند "أحمد الزغبي" يقوم على أن يتضمن((نص أدبي ما نصوصاً أو أفكاراً أخرى سابقة عليه، عن طريق الإقتباس، أو التضمين، أو التلميح، أو الإشارة، أو ما شابه ذلك من المقروء الثقافي لدي الأديب، بحيث تندمج هذه النصوص أو الأفكار مع النص الأصلي وتندغم فيه ليتشكل نص جديد واحد متكامل)) (الزعبي، ١٩٩٥، ٩) وفي هذا الإطار يري محمد عبدالمطلب أنّ النضج الحقيقي، فنيّاً وإبداعياً، لايتم للشاعر إلاّ من خلال تمثل مبدأ التناص(عبدالمطلب، ١٩٩٠، ١٤)الذي يمثل((الهواء والماء والزمان والمكان للإنسان، فلا حياة له بدونهما ولا عيشاً له خارجهما))(مفتاح، ١٩٨٥، ١٣٢) لكن التناص لا يعني أن يستسلم الشاعر للنصوص السابقة، فيصبح نصه إعادة آلية لما

سبقه من نصوص، لأنّ الكلمة حينما تدخل النص الجديد تشحن بدلالات ومعان مختلفة وتحمل معها إيحاءات إلى حدما، قد تقارب الإيحاءات السابقة، ولكنّها تحتفظ لنفسها بخصوصية تضمن لها تحقيق ذاتها بعيداً عن ذوات الآخرين، وعندما تتراكب الكلمات ضمن سياقاتها الجديدة تجعل اللغة تتحرك وتنهض من ركام الذاكرة وفوضي الأشياء في عالم فاجع، لتؤسس كيانها وخصوصية ذاتها التي تنبع من خصوصية قولها، وتقدم تشكيلاً جديداً للعالم والأشياء(حميد، ١٩٩٦،٩٦).

٧ـ الحضور القرآني في شعر الإمام الصادق عليه السلام.

كان التراث الديني (القرآني) في كل العصور ولدى كل الأمم مصدراً سخيًا من مصادر الإلهام الشعري، حيث يستمد منه الشعراء نماذج و موضوعات وصوراً أدبية. وقد شكل التراث الديني مرجعية دلالية، لها حضورها القوي والفعال في القصيدة العربية وتميزه وقدرته على النهوض بانفعالات المبدع وتجاربه، والتأثير مع الوجدان الجمعي؛ لأن المعطيات الدينية ((تشبع الإنسان وترضي رغبته في المعرفة، بما قدمت من تصورات لنشأ ة الكون، وتفسير سحري لظواهره المتنوعة)) (جودة نصر، ١٩٨٧: ٣٥) فقد وجدنا أن الإمام عليه السلام يقتبس من القرآن الكريم آياته المحكمات وهذا الاقتباس وقع على نمطين أما بالنقل الحرفي أو بالنقل الضمني وفي كِلا الحالين سمت هذه العملية بالأبيات نحو الأبداع الفني و الشعرية فتمتعت الأبيات بالأجواء القرآنية المقدسة التي تحدثت عن الايمان بالله تعالى وذم الدنيا ومشاهد القيامة والجزاء والجنة والنار والتقوى والإيمان بالقضاء والقدر والتوكل على الله في الرزق والصبر والقناعة وغير ذلك وقد ظهر هذا التاثر بالمعاني القرآنية في جوانب مختلفة كاللغة واللفظ والمعنى. أما في مجال الصورة فقد انماز التصوير الفني في هذه الابيات بالاجواء المقدسة حيث الارتباط بالسماء وقيمها الخالدة فتطلعنا الى مشاهد القيامة والحساب والجزاء والجنة والنار والكافر والمؤمن وما أعده الله للصالحين من ثواب ونعيم مقيم في جنة الفردوس حيث الروح والريحان والراحة والسلسبيل وما ذلك إلا إمتداد للجدة والأصالة والذي ظهر في انواع الصور الاصلية والايحائية والمنقولة.

٨ـ التناص القرآني في شعر الإمام الصادق عليه السلام

تأثر الإمام عليه السلام بالصورة القرآنية فعمد إلى اقتباسها لاثراء ابعاد صورته الشعرية فهو ينقل جوهر الحدث في صورته الشعرية ويضيف اليها من اسلوبه وشاعريته وتدور غالبية موضوعاتها حول اليوم الاخر وساعة قيام الساعة او الجنة والنار الدنيا والغرور والزاد والتقوي والفلاح وغير ذلك. وعمد الإمام إلى استدعاء الصورة الإيحائية فهي تلك الصورة التي ((تومئ الى اللفظة القرآنية من بعيد فهي تتضمن شيئاً من الصورة القرآنية ولكن المتلقي لا يستطيع ان يمسك عناصر الصورة القرآنية الا بالتلميح والتقرب، وهي بهذا تتفاوت في بعدها وقربها وفقاً لدرجة النباهة وبالحضور الذهني لدى القارئ (شلتاغ عبود ١٩٨٧م: ١٢٤).فالشاعر فيها يعبر عن صورة يستدعيها من سياقها القرآني ويضعها في بنيته الشعرية تشع فيها هذه اللفظة بطاقات ايحائية تسهم في اثراء صورته الشعرية والدافع من قيمتها((هكذا تكون اللفظة الواحدة كافية لاشاعة الظلال التي تربط المتلقي بالشاعر ليعي ما يقدمه له، حين تكون هناك ملكة خلاقة تقوى على استغلال طاقتها التصويرية وامتداداتها النفسية)) (بوحجام، ١٩٨٧م: ٢٤٢/١)ومن هنا نستطيع أن نقول ان الأثر القرآني(التناص القرآني-) يزيد في فاعلية النص تأثيراً وإبداعاً فترتاح اليه النفس وتلتفت الى السحر المبدع الذي الفته في آيات الذكر الحكيم. وما الاستشهاد أو الاحتجاج المندرج كما يقال في صُلب الخطاب الأدبي إلا حضور للنص القُرآني في ذهن الشاعر والحاحه على إتخاذ الموقع الملائم في البنية الشعرية وإسهامه في تنشيط فاعلية النص الشعري والتأثير إيجابياً في المتلقين. فلقد تأثرت بنية النص الشعري للإمام ببنية النص القرآني، إذ كثيراً ما نجده قد اقتبس جملاً وعبارات قرآنية استلهمها واستعملها في أشعاره لنقل أحاسيس ومشاعر وأفكار وعواطف جالت في خلجات نفسه أو أحاسيس أراد نقلها وتوصيلها إلى نفس المتلقي. فمحاولة الأديب الاقتباس من القرآن الكريم يعني ((محاولة التقرب من تلك الذروة العالية، وكلما أكثر الشعراء من اقتباسه كان أقرب الى تلك الذروة))(مكي العاني، ١٩٩١:١٧).

لقد تضمن شعر الإمام عليه السلام حشدا كبيرا من المفردات ذات البعد القرآني والبعد الإسلامي استخدمها القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف. وهذا يدل فيما يدل على أن الإمام عليه السلام ذو ثقافة دينية واسعة. وقد قام بامتصاص دلالات المفردات المتناصة. وذلك لإعطاء الخطاب الشعري قيمة فنية خاصة ذات تأثير عميق في نفس المتلقي بعد أن يمنحها

رؤيته الخاصة. كما أن التناص من شأنه أن يساهم في تقوية النص وتصوير أفكاره وتجليته مما يزيده قيمة وفاعلية في وجدان الناس، وجمالا ورونقا وبهاء.

٩ـ أشكال التناص في شعر الإمام الصادق عليه السلام

١-٩- التناص النصي (اقتباس النصي):

يعمد الشاعر أو الأديب في هذا النمط من الاقتباس إلى استدعاء النص القرآني في سياق بيته الشعري دون ان يقوم بتغيير النص أو تحويره وإنما يُشار اليه على أنه نص من القرآن الكريم ((لأن ما ينبه عليه يدخل في باب الاستشهاد))(حسن التوسل في صناعة الترسل: ٣٢٣).ومن هنا نستطيع أن نقول ان الاقتباس القرآني يزيد في فاعلية النص تأثيراً وإبداعاً فترتاح اليه النفس وتلتفت الى السحر المبدع الذي الفته في آيات الذكر الحكيم. و((ما الاستشهاد أو الاحتجاج المندرج في صُلب الخطاب الأدبي إلا حضور للنص القُرآني في ذهن الشاعر والحاحه على إتخاذ الموقع الملائم في البنية الشعرية وإسهامه في تنشيط فاعلية النص الشعري والتأثير إيجابياً في المتلقين)) (فاعلية التعبير القرآني في الشعر، ٣٢٧) والحق أن الاقتباس النصي لا يتحقق إلا بإتيان الشاعر النص القرآني و تراكيبه ومن ذلك قول الإمام الصادق عليه السلام:

وكيف يلذ العيش من هو موقن ... بموقف عدل حين تبلي السرائر

فالإمام قد استدعى نص الآية القرآنية ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ (الطارق:٩-١٠) فإستضافها في بنية نصه الشعري مع تبنيه على أنه نصٌ قرآني،فكان أن جاءت الصياغة التركيبية مطابقة على مستوى بنيتها السطحية أما على مستوى بنيتها العميقة فقد جاء استعمالها الدلالي موافقاً ايضاً. فاقتبس الإمام قوله تعالى:((يوم تبلي السرائر))في عجز بيته بأكمله من حيث الصياغة التركيبية مع زيادة لفظة (حين) بدل(يوم) ليكتمل البيت الشعري.

وفي مقطع آخر قال الإمام الصادق عليه السلام (روضة الواعظين: ٤٠٣):

ويفنى ما حواه المرؤ أصلاً ... وفعل الخير عند الله باق

فقد اقتبس الإمام عليه السلام عبارة(عند الله باق) في عجز شعره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ

ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٩٥-٩٧) دون أن يحدث أي تغيير على البنية السطحية للنص الشعري فجاءت البنية السطحية موافقاً الصياغة التركيبية. فالإمام عليه السلام هنا اقتبس الآية القرآنية الشريفة كلها أو جزءاً منها دون الاشارة الى فعل الاقتباس مُحدثاً بذلك التحاماً بين النص القرآني والنص الشعري فكما يقال هو التحام تلاصق وتجاور لا تداخل.

وأنشد الإمام الصادق عليه السلام (الفرج بعد الشدة ٢٩٦/١):

فـــلا تجـــزع و ان أعســـرت يومـــا	فقـــد أيســـرت في زمـــن طويـــل
ولا تيـــأس فـــان اليـــأس كفـــر	لعـــل الله يغـــني عـــن قليـــل
ولا تظـــنن بربـــك ظـــن ســـوء	فـــان الله أولى بالجميـــل

فالإمام عليه السلام يحذر الإنسان من الجزع واليأس اذا وقع في بلية أو مصيبة أو سوء الظن بالله عزّ وجل فهو بذلك يشير إلى فحوى الآيات الكريمة التي عبّر عنها ربّ العزة بقوله: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف:٨٧)

وفي مقطع أخر أنشد الإمام عليه السلام (بحار الأنوار٤٣٢/٦٧)

ومـــا ترجـــو النجـــاة بـــه وشـــيكاً	وفـــوزاً يـــوم يؤخـــذ بالنواصـــي
فلســـت تنـــال عفـــو الله إلاّ	بـــتطهير النفـــوس مـــن المعاصـــي

فنص الإمام عليه السلام يتشرب بالنص القرآني الذي استدعاه في عجز بيته الشعري من قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ (الرحمن: ٤١) فعلى مستوى الصياغة التركيبية حدث تغيير طفيف حيث وظف الإمام (يوم) بدل(الفاء) لتتحقق استقامة الوزن في البيت الشعري، فالسياق الشعري جاء موافقاً دلالة النص القرآني الذي يؤكد أن الله عز وجل يجزي كل نفس بما كسبت في الدنيا ليجازي المحسن بإحسانه والمسيءَ بإساءته فهو لا يظلم أحداً من خلقه فالإمام يحث المتلقي ويشجعه على النجاة والسلامة إذا أرداها وتحقيق ذلك يتم عن طريق تطهير النفس وغسلها من الذنوب والأدران والإنابة إلى الله وطلب

العفو والمغفرة منه.

٢-٩- الاقتباس الاشاري

إن الاقتباس الاشاري يعني ما أشار إليه الشاعر في الآيات من غير أن يلتزم بلفظها وتركيبها أو هو ما كان الشاعر يشير فيه الى آية من الآيات القرآنية. ففيه ((يعمد الشاعر الى الاختصار والتكثيف اقتصاراً منه على الدلالات الايحائية والاشارات الرمزية)) (التميمي، ٢٠٠٠م: ٨٠). فالشاعر ينطلق من مبدأ أساسه ((الاقرار بقداسة النص القرآني فيتعامل معه بشيءٍ من التحريك والتحويل لا ينفي الاصل ولا يُحدث الشاعر ما يمس جوهره، ولا يتعارض معه)) (فاعلية التعبير القرآني في الشعر المحدث: ٣١٧). محدثاً بذلك امتزاجاً بين البنية القرآنية المعجزة والشعر منتجاً بذلك بنية جديدة.

كقول الإمام الصادق عليه السلام (الديوان:٣٨-٣٩):

فما صرفت كفّ المنيّة إذ أتت	مبادرةً تهوي إليه الذخائر
ولا دفعت عنه الحصون التي بنى	وحفّ بها أنهارها والدساكر
فليس له من كربة الموت فارج	وليس له ممّا يحاذر ناصر

فالاقتباس واضح الاشارة إلى الآية القرآنية في قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ (النساء:٧٨) فإنّ هذا المفهوم يتواشج دلالياً مع ملفوظ النص الغائب، ويؤازر دلالته، ويدعم فكرته. وهنا تتجلي فاعلية الامتصاص الشعري للتركيب القرآني حيث وظفه الإمام عليه السلام بصياغة جديدة أكسبها نوعاً من الخصوصية، فالتناص هنا لم يعتمد على التمثل الخفي للتركيب القرآني بشكل يثير في نفس المتلقي قدرة إيحائية خاصة تمكنه أن يستجلي النص الشعري ومدي تأثره بالنص القرآني، ومدي استقطابه لبعض اللمحات والومضات القرآنية.

وفي مقطع آخر يقول الإمام الصادق(الفصول المهمة:،١٩٨، أعيان الشيعة٢٢٢/٤، وديوان أهل البيت: ٥١١، وديوان الإمام الصادق:٨٠)

أثامن بالنفس النفيسة ربها	فليس لها في الخلق كلهم ثمن

بهـــا يشـــترى الجنـــات إن أنـــا بعتـــها بشـــيء ســـواها إن ذلكـــم غـــبن

إذا ذهبـــت نفســـي بـــدنيا أصـــبتها فقـــد ذهبـــت نفســـي وقـــد ذهـــب الـــثمن

فالإمام عليه السلام في البيت الثاني يمتص المفهوم القرآني ويلمح إلى الآية الكريمة القائلة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ وفي مقطع آخر يقول(إحياء علوم الدين ١٠٤/١ وجامع الإسرار ومنبع الأنوار: ٥٤):

ســـــبقت العـــــالمين إلى المعـــــالي

بحســـــن خليقـــــة وعلـــــوّ همّـــــة

ولاح بحكمـــــتي نـــــور الهـــــدى

في ليـــــال في الضـــــلالة مدلهمّـــــة

يريـــــد الجاحـــــدون ليطفـــــؤوه

ويأبـــــى الله إلاّ أن يتمّـــــه

في البيت الأخير يشير إلى الآية القرآنية الكريمة: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٣٢)

وفي مقطع أخر يقول الإمام عليه السلام:

هـــو اليـــوم الـــذي لا ودّ فيـــه ولا نســـب ولا أحـــدٌ يواســـي

فالإمام في هذا البيت يشير إلى النفخة الأولى التي تنقطع الأواصر بين المرء وأهله وخلانه التي نصت عليه الآية الكريمة بقولها: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠١)

ويقول الإمام عليه السلام في مكان آخر (من شعر المعصومين، ١٢٩):

وانّ متـــــاع دنيانـــــا قليـــــلٌ ومـــا يجـــدي القليـــل مـــن المتـــاع

وقد استوحى الإمام عليه السلام تلك الفكرة من قوله تعالى في سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ

لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (النساء:٧٨).

وفي هذا المقطع الشعري تركز حضور الخطاب القرآني حضوراً فاعلاً لشحن النص الشعري بكم هائل من من الايحاءات. فلقد كان الإمام من خلال هذه الدفقة الشهرية يدعو الى ذم الدنيا ومتاعها فمقام الانسان فيها قليل فهو يدعو الى التزود فيها لدار القرار دار البقاء والخلود والتزود فيها يكون بالتقوى فهي خير زاد يتزود به الانسان لاخرته فمن طلب العز ليبقى له فان عزّ المرء يكون بتقواه.

٣-٩- الإقتباس المحور:

إن هذا النوع من الإقتباس يعني أن يقوم الشاعر بـ((استدعاء البنية القرآنية وإضافتها في خطابه الشعري وجعلها ممتزجة معه عن طريق العملية التحويرية للنص القرآني لفظاً ودلالة، حذفاً وتوليداً، تكثيفاً وتوسيعاً)) (محمد التميمي ٢٠٠٠م: ٣٠) يقول الإمام الصادق عليه السلام حول الدنيا وزينتها ومكرها تجاه الأهل وما يربح الإنسان منها (الديوان٧٣):

فَـــلا تَغُرَّنَّـــكَ الـــدُّنْيا وَزِينـــتُها
وانْظُـــرْ إلى فِعْلِهـــا في الأَهْـــلِ والـــوَطَنِ
وانْظُـرْ إلى مَـنْ حَـوَى الـدُّنْيا بِأَجْمَعِـها
هَـلْ رَاحَ مِنْهـا بِغَيْـرِ الحَـنْطِ والكَفَـنِ

فالإمام عليه السلام قد أجرى بعض التغيير فحور في النص القرآني الداخل في نصّه الشعري الذي هو ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (لقمان:٣٣) فأبدل ضمير الجمع للخطاب بالضمير المفرد، وحذف الحياة وأبقي لفظة الدنيا واردفها بلفظة زينتها ووجّه للخطاب للنفسه كي لا تغرّه الحياة بزينتها ويخذ الحذر من بريقها. وأما دلالة التركيب فتكاد تقترب من روح النص القرآني الذي جاء ليعبر عن معنى واضح هي أن الدنيا تفتك بمن يهواها وسيصيبه الغرور نتيجة حبّه للدنيا ويغتر ببريقها وزخارفها وبذلك سيبتعد عن الأهل والأصدقاء ويصيبه الغرور والتكبر ويبتعد عن الله نهائياً.

وفي مقطع آخر يرسم الإمام القيامة وأهوالها ويصور ذلك اليوم بعدسة قرآنية إذا جاز التعبير، حيث يقول (الديوان:٤٦):

عظـــيم هولـــه والنـــاس فيـــه
حيـــاري مثـــل مثبـــوث الفـــراش
بِـــهِ تغـــيير الألـــوان خوفـــاً
وتصـــطكُّ الفـــرائص بإرتعـــاش
هنالـــك منـــك مـــا قـــدّمت يبـــدو
فعيبـــك ظـــاهر والســـرُّ فـــاش

فلقد قام الإمام عليه السلام باستدعاء بنية النص القرآني في خطابه الشعري عن طريق العملية التحويرية للنص الذي أخذه من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ (القارعة:٤-٥) فدلالة النَص الشعري فهي قريبة من روح النص القرآني الدالة عن القيامة وأهوالها. فالمشهد المعروض في الآية والمعني المستوحاة منه في لغة الإمام مشهد مخيف ((وهول مادي يبدو الناس في ظله ضئالاً على كثرتهم، فهم "كالفراش المبثوث" مستطارون كذلك مستخفون؛ وتبدو الجبال الثابتة كالصوف المنفوش تتقاذفه الرياح الهوج)) (سيد قطب،٢٠٠٣،٦٥) وبعد هذا يمكننا أن نقول إنَّ الاقتباس الذي أداه الإمام عليه السلام قد تم عن طريق اقتباس لآيات كاملة وتراكيب بعينها ضمنها في أبياته الشعرية أو عن طريق اقتباس شبه كامل للآيات او التراكيب القرآنية وقد يكون الاقتباس اشارات او رموزاً لآيات معينة او سور قرآنية بالاعتماد على ثقافة المتلقي القرآنية فضلاً عن ذكاءه وفطنته التي ترشده الى فهمها بالإشارة أو الرمز.

وأنشد الإمام في مقطع آخر (الديوان:٦٢-٦٣):

إذا نصـــب الميـــزان للفصـــل والقـــضاء
وأبلـــس محجـــاج وأخـــرس ناطـــق
وأججـــت الـــنيران واشـــتد غيظهـــا
إذا فتحـــت أبوابهـــا والمـــغالق

وفي هذا القطعة الشعرية يوجد تناص أو اقتباس محوري مع أكثر من آية في الموضع الواحد وهذه الكثافة التناصية تعود إلى تعدد السياقات داخل النص الحاضر أو تعدد الإشارات الصادرة منه. وقد استدعي الإمام الصادق عليه السلام في نصه البيت الأول قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ (المرسلات:٣٥-٣٦) وفي البيت الثاني قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ (الفرقان:١٢-١٣) وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (الزمر-٧٢-٧٣)وفي هذه الآيات تصدر إشارات دلالية واحد تشد النص الشعري إلى دائرتها وتحركه في فلكها. فالإمام عليه السلام قد تمثل معاني القرآن الكريم دون أن يتقيد بتراكيبه وعباراته فقد عمد إلى اقتباس لفظة قرآنية أو عبارة قرآنية واحدة مستفيداً بما فيها من طاقات تعبيرية وتصويرية موحية فضلا عن أن الأديب قد يعمد إلى استعمال عدة عبارات لإفادة التعبير والتصوير فضلاً عن تأثر قصيدة واحدة بمعان كثيرة من القرآن الكريم.

١- القرآن الكريم بألفاظه، ومعانيه، وتراكيبه وصوره كان حاضراً في شعر الإمام الصادق عليه السلام، وكان أثره واضحاً جلياً فأغني الإمام بهذا النبع الثري صوره الأدبية التي حفلت بها قصائده، ولعل استحضار تلك الصور كان أدق وأخفي على المتتبع، إذ يستدعي معرفة عميقة بما ضمه هذا الكتاب الكريم بين دفتيه من أسرار البيان وكنوزه. فالإمام باعتباره القرآن الناطق أغني أسلوبه من هذا الكنز اللغوي والمعرفي الفريد وقد وظفّ النص القرآني لرسم صورة من خياله الخصب مقتبساً من النص القرآني لفظه ومعناه أحياناً.

٢- قد توزعت ظواهر التناص أو الاقتباس عدة محاور في شعر الإمام عليه السلام، كان لكل منها دوره الهام في إنتاج الدلالة، أو توجيهها وجهة معينة، كما أنها كانت تأخذ أشكالا مختلفة، بحيث تتفاعل المحاور مع الأشكال فتعطي التناص طبيعة داخلية

وخارجية في آن واحد. وقد كانت محاور التناص تتمثل في المفردة القرآنية وكذلك التركيب القرآني، ثم التناص مع أكثر من آية في الموضع الشعري الواحد، ثم التناص مع الآية كاملة، حيث رأينا الظاهرة تخرج من نطاق التناص إلى دائرة التنصيص، ثم الإضافة، حيث يضيف الإمام كلمة أو ضميراً إلى النص القرآني، فيخرج ذلك النص عن مساره القرآني إلى مساره الشعري الجديد

٣- قد رأينا أن النص القرآني أذكى شعرية الإمام عليه السلام، بما يحمله من دلالات ومعان وصور من خلال زيادة الغنى الدلالي للجملة الشعرية، ومن خلال عمق الصورة المستوحاة منه عبر استدعاء سياقات دلالية قرآنية تطابق – في بعض الأحيان- الدلالة المباشرة للجملة الشعرية، وقد تكمل - في أحيان أخرى- المعنى الذي بقي في ضمير الإمام. فعمد الإمام الى اقتباس الصورة القرآنية لاثراء ابعاد صورته الشعرية فهو ينقل جوهر الحدث في صورته الشعرية ويضيف اليها من اسلوبه وشاعريته وتدور غالبية موضوعاتها حول اليوم الاخر وساعة قيام، والموت، والتقوي، والزهد و الجنة والنار والتحذير من الدنيا وزخارفها والارشاد والهداية وغير ذلك من المفاهيم الإسلامية العريقة.

٤- شكّل المعجم الشعري للإمام الصادق عليه السلام نقلة نوعية في الأدب الإسلامي حيث تضمن هذا المعجم العديد من المفردات القرآنية والإسلامية والتي راحت تعبر عن روئ وآراء ودلالات نابعة من الصميم القرآني. ومن هنا عبر الإمام عليه السلام من خلال صياغته اللغوية ومفردات تراكيبه التي استقاها من المنبع الخصب الذي لا ينضب (القرآن الكريم) عن موقفه من الحياة والموت والبعث والقيامة والقضاء والقدر والتوكل على الله والصبر والقناعة وغيرها وهو بذلك نجح في التعبير عن الوجدان الجماعي من خلال وجدانه الذاتي. ولاسيما أنها قد اشتملت على معاني القرآن الكريم الذي يصلح لكل زمان ومكان. إن تأثر شعر الإمام بأسلوب القرآن الكريم الذي يميل الى الوضوح ومخاطبة العقول بالحقائق جعل لغة هذا الشعر تميل نحو الوضوح والسهولة.

٥- كثرة الأشعار المنسوبة للإمام الصادق عليه السلام من حيث صحة الإرجاع للإمام أو عدمها تدلّ على معرفة الإمام الصادق وإلمامه بالشعر العربي.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير ما نبتدئ به القرآن الكريم

- إبراهيم محمود، خليل (٢٠٠٦):من معالم الشعر الحديث في فلسطين والأردن، عمان، دار مجدلاوي.
- ابركرمبي، لاسل(١٩٥٤): قواعد النقد الادبي، ترجمة محمد عوض محمد ط٣ القاهرة.
- ابن الأثير(ت ٦٣٠هـ) (١٩٦٥):الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور تحقيق مصطفى جواد جميل سعيد مطبعة المجمع العلمي العراقي بغداد.
- ابن ميادة (١٩٨٦):ديوان، جمع وتحقيق محمد نايف الدليمي، الموصل، مطبعة الجمهورية.
- الأندلسي، لأبي عمر احمد بن محمد بن عبد ربه (ت٣٢٨هـ): العقد الفريد: تحقيق احمد امين، ابراهيم الابياري، احمد الزين،ط٣، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- باقر، طه(١٩٨٠): من تراثنا اللغوي القديم، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي.
- بلاشير (١٩٧٣):تاريخ الادب العربي، ترجمة د. ابراهيم الكيلاني، دمشق، منشورات وزارة الثقافة.
- بوحجام محمد ناصر (١٩٨٧): أثر القران في الشعر الجزائري، الجزائر، غردابة.
- التميمي، محمد(٢٠٠٠): القرآنية في شعر الرواد، رسالة ماجستير كلية الآداب جامعة القادسية.
- الجرجاني، أبي الحسن الحسني (١٩٨٦): التعريفات، تحقيق د. أحمد مطلوب، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة.
- الجرجاني، لأبي الحسن الحسيني (ت٨١٦هـ):التعريفات، تحقيق د. احمد مطلوب بغداد دار الشؤون الثقافية العامة بغداد. الحذيفي، عبدالله(١٩٩٩): فاعلية التعبير القرآني في الشعر المحدث العباسي اطروحة دكتوراه كلية الآداب الجامعة.
- الحلبي (ت٧٢٥هـ)(١٩٨٠): حسن التوسل في صناعة الترسل تحقيق: اكرم عثمان، بغداد وزارة الثقافة والاعلام.
- حلبي، أحمد طعمة (٢٠٠٧): التناص بين النظرية والتطبيق شعر البياتي نموذجاً، دمشق، الهيئة السورية للكتاب.
- حمدان، عبد الرحيم حمدان (٢٠٠٦): ((التناص في مختارات من شعر انتفاضة الأقصى المباركة)) مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية، مجلد٣، العدد٣.
- الرافعي، صادق (١٩٧٣): اعجاز القرآن والبلاغة النبوية، لبنان، بيروت، دار الكتاب العربي.

- الزعبي، زياد (١٩٩٥): تبسيط الخطاب الشعري، دراسة في بنية اللغة الشعرية ومصادرها عند حيدر محمود، عمان، منشورات أمانة عمان الكبرى.
- الصادق، الإمام(٢٠١٣م): ديوان الإمام الصادق، اعداد رسول كاظم عبد السادة، بيروت، دار المتقين.
- المؤيد، على حيدر(٢٠٠٢م): ديوان اهل البيت، بيروت، دار العلوم.
- الصدوق (١٤١٧هـ): الأمالي، قم، مؤسسة البعثة.
- الصدوق (١٩٧٠م): اكمال الدين واتمام النعمة، النجف، المطبعة الحيدرية.
- سيد قطب (٢٠٠٣): مشاهد القيامة في القرآن، مصر، القاهرة، دار المعارف.
- شلتاغ، عبود شراد(١٩٨٧م): اثر القران في الشعر الحديث، دمشق، دار المعرفة.
- عاطف جودة نصر (١٩٨٧): الرمز الشعري عند الصوفية، لبنان، بيروت، دار الأندلس.
- العاني، مكي (١٩٩١): اقتباس شعراء صدر الاسلام من القران، مجلة آداب المستنصرية العدد ٢٠.
- عبد المطلب، محمد(١٩٩٥): قراءات اسلوبية في الشعر الحديث الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- عشري زايد، على (١٩٩٧): استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، القاهرة، دار الفكر العربي.
- غضيب احمد شاكر(١٩٨٩): أثر الاسلام في بناء القصيدة العربية حتى نهاية العصر الاموي، رسالة ماجستير، جامعة بغداد كلية الآداب.
- قاسم، نادر (١٩٩٤): التواصل بالتراث في الرواية العربية الفلسطينية الحديثة، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية.
- قاسم، عبده قاسم (١٩٩٤): ((الشعر والتاريخ)) مجلة الفصول، المجلد٣،العدد٢.
- محمد باقر مجلسي(١٣٦٢): بحار الانوار، تهران: دار الكتب الاسلامية.
- مسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري(ت٢٦١هـ): صحيح مسلم تحقيق واشراف عبد الله احمد ابو زينة مصر دار احياء الشعب.
- مفتاح، محمد (١٩٨٥): تحليل الخطاب الشعري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
- نمرموسى، إبراهيم (٢٠٠٥): آفاق الرؤيا الشعرية، فلسطين، رام الله.